الفصل الثالث

بيزنطة وروما
قطبا المسيحية المتعاديان

لو لم يظهر الإسلام ألبتة على مسرح التاريخ، فإن الدين الذى كان سيهيمن، بلا شك، على منطقة الشرق الأوسط هو المسيحية الشرقية الأرثوذكسية. فلم يكن ثمة دين منافس له جدير بالثقة سوى الإسلام. كذلك، كان الغالب أن تنظر الكنيسة الأرثوذكسية، والتى كانت لتحرز الغلبة والسيطرة حال غياب الإسلام، بارتياب وتشكك عميقين تجاه الغرب إلى يومنا هذا. ولو كانت الأرثوذكسية الشرقية قد احتفظت بهيمنتها على امتداد البحر المتوسط وإقليم الشرق الأوسط، لكان الأرجح أن تكون اليوم حاملة لواء الغضب الشرقى المتراكم على امتداد قرون عديدة من المعاناة والصراعات مع الغرب. وسنشهد فى فصول الكتاب القادمة هذا المنحى وهو يتصاعد مقدما الدليل على أن الشرق الأوسط كان ليخاف الغرب ويتشكك فيه حتى لو لم يكن ثمة إسلام.

وقد دفعت تلك التباينات ما بين الإمبراطورية الشرقية (بيزنطة) والإمبراطورية الغربية الرومانية ... تباينات دينية وحضارية وثقافية وجيوبوليتيكية وتاريخية وفنية وسيكولوجية ... – بعض الباحثين من أمثال صموئيل هانتنجتون إلى أن يذهب إلى أن الأرثوذكسية الشرقية كواحدة من حضارات العالم المختلفة كانت ستصطدم بالغرب، وجد الإسلام أم لم يوجد. وفى الحقيقة، فإن العداء ما زال قائما، حتى وإن باتت الكنيسة الشرقية غير مسيطرة فى الشرق الأوسط.

ووفقا لموروثنا الغربى، فنحن نتعامى عن وجود الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية التى غالبا ما تغيب عن أذهاننا ودائرة اهتمامنا كغربيين. إذ نشهد قليلا من تلك الكنائس فى المحيط الذى ينتظمنا، وغالبا ما يجانبنا الصواب فى تقدير الأهمية الكبيرة التى تمتعت بها الكنيسة الشرقية، وما زالت، على امتداد تاريخ المسيحية والشرق الأوسط. فبداية، تعد تلك الكنيسة ممثلة لأقدم ديانة مسيحية وأكثرها

ارتباطاً بسكان إقليم الشرق الأوسط المحليين، بالمقارنة بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية، والتى نمت بمعزل عنها فيما يخص الطقوس الممارسة، والطابع الثيولوجى، والسياسات الحاكمة، وحتى المظهر الخارجى والتكوين، وكذلك بكون الكنيسة الكاثوليكية بعيدة عن أورشليم مقارنة بالكنيسة الشرقية. وبالإضافة إلى ما سبق، فإن الأرثوذكسية ما زالت قائمة فى إقليم الشرق الأوسط ممثلة فى جماعات من الأقليات الأرثوذكسية. وتتيه الكنيسة الشرقية وتفخر كونها أشبه ما تكون، شكلا وروحا، بالكنيسة الأولى، وبكونها قد نشأت على الأراضى ذاتها التى نشأت عليها، وكذلك فهى تحمل اعتقادا راسخا بأنها قد تحاشت الفساد العقائدى والمؤسساتى الذى شهدته يصبغ الكنيسة اللاتينية الغربية.

إن الكنيسة الأرثوذكسية ما زال بداخلها جذور ضاربة أطنابها من مشاعر العداء للغرب. والشئ الذى يسترعى الانتباه هو أن الكثير من تلك المشاعر لدى

الأرثوذكس الشرقيين تشبه، على نحو كبير، مشاعر بعض المسلمين حيال الغرب، وهو ما يشير إلى رؤى وشكوك ومعاناة مشتركة إزاء نوايا الغرب وتدخلاته وهيمنته. ولقد أشرنا آنفا إلى ما تتقاسمه بعض المذاهب المسيحية مع الإسلام : كيف تتشابه العديد من تلك المذاهب، والتى اعتبرتها السلطات الكنسية لاحقا هرطقات تجديفية، فيما يخص طبيعة المسيح مع المنظور الإسلامى لتلك الطبيعة. إن المعاناة المشتركة للكنيسة الشرقية والإسلام من النفوذ الغربى وسطوته تشير إلى أن خطوط الاحتكاك الحضارية ليس منشأها التباينات الثقافية فيما بين تلك الملل فحسب، وإنما تجد أصولها فى طبيعة الغرب ذاته فى مواجهاته التصادمية مع الشرق الأوسط لآماد طوال خلت، إذ غالبا ما تعمل الطبيعة السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتباينة على جعل الاختلافات الثيولوجية الطفيفة تستحيل ثورات وهرطقـــات جسام. (ويصدق ما سبق على الانقسام السنى/الشيعى داخل حدود الدين الإسلامى ذاته، إذ لا تعدو الخلافات الأولية بشأن الأحقية فى خلافة النبى محمد أن يكون لها أى ملمح دينى أو عقائدى، ولكنها نمت بمرور الوقت لتصبح عداءات طائفية عميقة الغور).

وهنا يلح سؤال دائرى محير : هل الاختلافات الثيولوجية هى ما يشعل فتيل الصراعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ويؤجج نيرانها، أم بالمقابل، يكون للتباينات السياسية والاجتماعية والاقتصادية القائمة والملموسة مردود على الأمور الدينية والمناحى الأيديولوجية؟ إنه بمجرد انبثاق صدع ثيولوجى طفيف فسرعان ما ترسخ آثاره فى الشئون المجتمعية الخاصة بالكينونة والهوية، بل وفى الوجود المجتمعى ذاته. وبعبارة أخرى، قد يختلف الناس، على نحو منطقى مقبول، بشأن مسائل ثيولوجية بسيطة ترتبط بطبيعة المسيح، ولكن ما الذى يدفعهم نحو التناحر والتقاتل بشأنها؟ من الجلى أن هناك عوامل أخرى هامة لها دور فى هذا الصدد.

إننا بحاجة إلى أن نعود إلى الوراء ... إلى زمن الإسكندر الأكبر لنشهد المشهد الافتتاحى لتاريخ يربو على الألفى عام من الصراع الجيوبوليتيكى بين

الشرق والغرب. فقد دشن الإسكندر أول هجوم عسكرى شامل للقوى الغربية باتجاه آسيا، وذلك فى عام ٣٣٤ قبل ميلاد المسيح، حيث عبرت قواته اليونان لتصل إلى الأناضول المسيطر عليها من قبل فارس آنذاك، لتغزو الإمبراطورية الأخمينية ذات القوة والنفوذ فى أرض الفرس. وقد مثلت تلك الأراضى جزءا فقط من إمبراطورية الإسكندر الأكبر، والتى امتدت لتشمل سوريا، ومصر، وأجزاء من العراق، لتصل إلى حدود شبه القارة الهندية. ومن وجهة النظر "الآسيوية"، فقد كان هذا غزوا حضاريا وثقافيا أجنبيا ترك تراثاً ضخماً من التفاعل المتبادل الثرى حضاريا والعدائى سياسيا. ولقد كانت فارس بالفعل فى صراع حربى تراوح بين كر وفر مع اليونان امتد لعدة قرون. فمن الوجهة الآسيوية، كانت اليونان هى الغرب، فضلا عن كونها الغريم والعدو.

وقد حافظت الدولة "السلوقية" -والتى خلفت إمبراطورية الإسكندر- على القوة العسكرية اليونانية، وكذا التخوم المرابطة عند حدود عالم يتقاسمه اللسانان السامى والفارسى حيث بدأ النفوذ اليونانى، آنذاك، فى الانحسار. ولقد مثلت سوريا والأناضول خطى المواجهة الأمامية الرئيسيين عند التقاء تلك الحضارات المتنوعة التى تقاتلت فيما بينها على امتداد مئات السنين. وفى النهاية، فقد خلفت الإمبراطورية الرومانية إمبراطورية الإسكندر الهيلينيستية. وبحلول القرن الرابع الميلادى، كانت قد امتدت إلى القسطنطينية، بل إلى أبعد من ذلك ... القسطنطينية، ذلك الإقليم الذى كان يعرف سابقا بالجناح الشرقى للإمبراطورية الرومانية. لذا، ففى الوقت الذى شهد تأسيس الإمبراطورية الرومانية الشرقية، كان هناك بالفعل تراث ضخم امتد لنحو ستة قرون من المواجهات والحروب فيما بين الشرق والغرب ... بين القوة الرومانية/اليونانية، والإمبراطوريتين الفارسية أو السامية.

بيد أن الصراع فى الإقليم لم يكن مقصورا على الصراع اليونانى ضد الحضارة الفارسية أو السامية. فالخصومة والعداء ما بين روما والقسطنطينية ذاتهما، داخل الإمبراطورية الرومانية، يعود تاريخها إلى القرن الثانى الميلادى،

على أقل تقدير، حين نشأ التنافس والتشاحن فيما بين البطريركات المسيحية الخمس الأولى : روما، والقسطنطينية، والإسكندرية، وأورشليم، وأنطاكية. فواحدة تلو الأخرى، خضعت الإسكندرية وأورشليم وأنطاكية للحكم الإسلامى فى القرن السابع الميلادى - مع احتفاظها بمراكزها الدينية، ولكن مع فقدان نفوذها العلمانى المحلى. وقد خلص الصراع إلى أن يكون ثنائيا ما بين روما والقسطنطينية. وبمرور الزمن، وبما أن التباينات فيما يخص الدين وما يرتبط به من طقوس وشعائر قد ازدادت اتساعا وفرقة فيما بينهما - فقد ظلت روما مصرة على تفوقها، فيما استشعرت القسطنطينية أنها كفؤ لروما وند لها. وكان تأسيس روما للبابوية لتحل محل البطريركية فى روما جهدا إضافيا لفرض امتيازاتها على البطريركات الأدنى شأنا فى المراكز المسيحية الكبرى فى الشرق. وللآن، فإن قضية التفوق تلك ما زالت قائمة.

إن الاختلاف فى موازين القوى قد انعكس أيضا فى تنامى التباينات الحضارية. فحين الحديث عن القسطنطينية، فنحن نتحدث، بالأساس، عن إقليم تغلب عليه سمات الحضارة اليونانية. وقد كانت القسطنطينية فى القلب من العالم المتحدث باللسان اليونانى، فأدى هذا التباين الحضارى إلى المساعدة فى إشعال فتيل الصراع والمواجهة بين المسيحية اليونانية والمسيحية اللاتينية - أى الشرق أوسطية والغربية. وحقيقة الأمر، فإن الجذور والأصول اليونانية للقسطنطينية تضرب بعيدا فى أغوار التاريخ، فقد عرف ميناؤها فى السابق من قبل اليونانيين باسم "بيزنطيون" فى القرن السادس قبل ميلاد المسيح ... وبعد ما يقرب من تسعة قرون، وتحديدا فى عام ٣٣٠ ميلادية، أعيد إنشاء المدينة بواسطة الإمبراطور الرومانى قسطنطين، فأطلق عليها اسمه. وقد رأى قسطنطين المدينة عاصمة ثانية أكثر أمانا للإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف فى وقت كانت روما تضطرب خلاله تحت وطأة موجات الحصار الهمجى المتعاقبة. وبذا، فقد انبثق جناحان مستقلان للإمبراطورية الرومانية، أحدهما إلى الشرق، والآخر إلى الغرب.

وفى تلك الآونة، فإن مجرد وجود "إمبراطورية رومانية غربية" ذات معنى قد أضحى أقرب إلى "الخرافة"، وذلك على نحو متزايد، إذ واصلت الحروب والأباطرة المتشاحنون، وكذا الهجمات الهمجية المستمرة – تمزيق روما. وبالسقوط النهائى للإمبراطور الرومانى فى روما نتيجة الغزوات الجرمانية فى عام ٤٧٦ م، تحطم الجناح الغربى للإمبراطورية الرومانية نهائيا. وبذا، فقد ورث الجناح الشرقى فى القسطنطينية الإمبراطورية الرومانية بكامل هيئتها، بما لها من أراض شاسعة فى البلقان والأناضول وشرقى المتوسط وشمال إفريقيا.

لقد نجم عن بزوغ القسطنطينية كمقر جديد للحكم فى الإمبراطورية الرومانية تبعات حضارية جسام. فعلى خلاف الهيمنة المطلقة للسان اللاتينى السائد على امتداد الإمبراطورية الغربية، فإن اليونانية كانت اللسان المشترك واللغة السائدة فى بلدان شرقى المتوسط قاطبة، وهو ما صبغ الإقليم بمدنه المختلفة بطابع حضارى يونانى. وكانت إحدى الأوراق الرابحة للقسطنطينية كون الإنجيل قد كتب باليونانية، وليس اللاتينية، إذ لن تقوى اللاتينية على الصمود كلغة إدارية رسمية للإمبراطورية الشرقية إلا لقرون قلائل لاحقة. وفى القسطنطينية، كانت الطبقة المتعلمة، بلا شك، تتيه فخرا لإلمامها باللغة والثقافة اللاتينية، وكذا لاضطلاعها المستمر بمقاليد الحضارة الرومانية ولوائها. بيد أن اللغات ذاتها كانت قد شرعت فى تحديد ثقافاتها وحضاراتها واسعة المدى : ما تبقى من الإمبراطورية "اللاتينية" غربا، والإمبراطورية "اليونانية" ذات النفوذ شرقا. وفى القرون اللاحقة، اصطبغ مصطلحا "لاتينى" و"يونانى" بمعان إضافية تحمل فى طياتها معانى ازدرائية مشتركة : فإذا ما أطلقت لفظة "لاتينى" فى القسطنطينية، أو لفظة "يونانى" فى روما، فيقصد بها الازدراء والاحتقار للمنعوت بأيهما. وفضلا عن ذلك، فلن يمكن لإمبراطور بعد ذلك أن يجمع بين حكم روما والقسطنطينية فى آن واحد. ولقد تضاءلت روما حتى صار حجمها لا يذكر مقارنة بحجم عاصمة الإمبراطورية الشرقية، القسطنطينية. كذلك، فقد ترك البابا هناك ليعيش عزلة كان فيها لا يعدو إلا أن يكون رمزا فحسب... أو

سجيناً، بالفعل، للقوى المحيطة به لمئات من السنوات التالية.

وفى ظل غياب تام للإمبراطورية الغربية، ما، إذا، طبيعة تلك العاصمة "الرومانية" فى القسطنطينية؟ بمرور الزمن، نما لدى القسطنطينية شعور باضطلاعها بمهمة جليلة - العمل على الحفاظ على الإمبراطورية الرومانية فى الشرق وديمومة بقائها، فقد أضحت القسطنطينية، وقتها، آخر معاقل الحضارة والروحانية المسيحية فى وجه الغزاة الهمج الجدد، سواء فى الغرب ضد القوطيين والفرنكيين والسيلتيين والعانيين والهون، أو فى الشرق ضد السلاف الوثنيين والفرس الزرادشتيين، ولاحقا مسلمى العرب والأتراك. إذا، فقد كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية تبلور هويتها الحضارية بالتمايز المتزايد آنذاك عن روما والغرب كمراكز للقوى والنفوذ.

حرب الأسماء

للأسماء دلالات سيكولوجية بما تدل عليه من كينونة حاملها وهويته. فمن الممكن أن تثار نقاشات جدلية بين اليونانيين عما يجب أن يطلق على القسطنطينية والكنيسة الشرقية من أسماء. ويوضح الصراع والخلاف الدائر حول اسم "الإمبراطورية الشرقية"، بجلاء، التوتر القائم فيما بين الشرق والغرب.

فالقسطنطينية، دونما أدنى تردد، تواصل الإشارة إلى نفسها بأنها عاصمة الإمبراطورية الرومانية، رغما عن جنورها فى عالم يتحدث اليونانية. إذا، فما الحد الفاصل الذى يمكننا أن نرصده لانتقال القسطنطينية من الإمبراطورية الشرقية الرومانية إلى الإمبراطورية "اليونانية"، أو البيزنطية كحقيقة قائمة؟ وواقع الأمر، فإن هذا التحول أو الانتقال الرسمى لم يحدث قط. (فالحقيقة، أن لفظة "بيزنطة" أو "البيزنطية" قد نشأت فى القرن السادس عشر فقط، حين نعت أحد المؤرخين الألمان الإمبراطورية الشرقية "بالبيزنطية". وقد اعتبرت القسطنطينية نفسها، بلا تردد، "الإمبراطورية الرومانية" حتى نهاية عهدها، ولم تتردد فى تبنى هذا الاسم حتى فى

اللغة اليونانية.

ولقد انتشرت لفظة "الرومانية" بما لها من قوة كنعت للإمبراطورية الشرقية إلى أبعد من الناطقين باليونانية، فانتقلت لتتداول على ألسنة المسلمين الذين سادت حضارتهم إقليم الشرق الأوسط. فمن الملاحظ أن الإمبراطورية المسيحية الشرقية، وفقا للغات السائدة في ذلك الإقليم – العربية، والتركية، والفارسية – كانت تنعت بدولة "الروم" (روما)، الأمر الذى ظل قائما إلى اليوم. كذلك، فإن لفظة "الروم" ما زالت تطلق على كل ما يرتبط بالإمبراطورية الرومانية الشرقية، أو بالأناضول (آسيا الصغرى). والقرآن ذاته به سورة تسمى "الروم" تتناول مسيحيى بيزنطة. أما الدولة التركية السلجوقية الأولى، ومقرها الأناضول، والتى خاضت حروبا ممتدة ضد القسطنطينية فى الصراع على أراض بالأناضول فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين – فقد انتحلت لنفسها لقب "سلطنة الروم". كذلك، فقد كان يطلق على البحر المتوسط باللغة العربية، آنذاك، "بحر الروم". (ولعشاق جلال الدين الرومى، الشاعر الصوفى الشهير، نود فقط أن نشير إلى أن الاسم "الرومى" هو صيغة النعت لمن يحيا فى بلاد الروم، التى تشغل ما كان، ذات يوم، أرضا للإمبراطورية الشرقية فى الأناضول).

إلا أن الغرب لم يكن ليتخلى عن "اللقب". فبالرغم من استخدامه الشائع والذى فشا فى إقليم الشرق الأوسط للإشارة إلى الإمبراطورية الشرقية، لم يكن الغرب يريد نقل مقاليد الأمر ولوائه من الإمبراطورية الرومانية إلى القسطنطينية، حتى وإن كان جليا كون الإمبراطورية الشرقية ما زالت مزدهرة فى الشرق، بعد سقوط الإمبراطورية الغربية فى قبضة الهمج لآماد طوال. ولقد كان الغرب مصرا على الإشارة إلى الإمبراطورية الشرقية فقط بأنها "الإمبراطورية اليونانية" أو "إمبراطورية اليونان" Imperium Graecorum، فى إشارة واضحة إلى رفضه تبنى أية لفظة موحية بإمبراطورية رومانية من قريب أو بعيد، إذ كان يرغب فى الاستئثار بلفظة "الإمبراطورية الرومانية" لإطلاقها على الحكام والملوك الغربيين.

ويمكننا التعرف إلى الكيفية التى عاد بها الصراع على "ماهية الرومانية" أو على من تطلق اللفظة – إلى الظهور ثانية، وبقوة. ففى عام ٨٠٠، وفى ذكرى مولد المسيح، قام البابا ليو الثالث، خلال القداس الجليل بكنيسة بطرس بروما، بتتويج شارلمان – الحاكم والقائد الجرمانى الهمجى، كإمبراطور الروم أو الرومان Im-perator Romanorum. وباستحضار ذلك اللقب بما له من دلالات، كانت الرغبة فى إعادة اللقب إلى ملكية الغرب، بانتزاعه من اليونانيين فى القسطنطينية الذين اغتصبوه فى حروب الأسماء تلك.

وعلى أية حال، فقد قرر شارلمان، والذى كان أكثر الحكام قوة ونفوذا فى الغرب آنذاك، عدم محاولة انتزاع لقب "الإمبراطور الرومانى" أو "إمبراطور روما" لنفسه، ولكنه سعى لإتمام زواجه بالإمبراطورة "إيرينى" فى القسطنطينية كسبيل إلى استعادة اللقب وتوحيد كلتا الإمبراطوريتين وإخضاعهما لنفوذه وهيمنته، بيد أنه قد أخفق فى تحقيق ما كان يصبو إليه. ولم يمض زمن طويل حتى قررت عصبة من القبائل الجرمانية تبنى لقب "الإمبراطورية الرومانية المقدسة" ... ذلك اللقب الرنان الطنان، وإنكار حق استخدامه من قبل القسطنطينية والإمبراطورية الشرقية. وقد أدت إضافة لفظة "المقدسة" إلى ذلك اللقب المنتحل إلى تأجيج الصراع، إذ أشارت اللفظة إلى زعم تلك العصبة الجرمانية بحقها فى احتكار القوة "الروحانية" للإمبراطورية لنفسها، بالرغم من أن تلك العصبة لم تكن حتى تسيطر على مدينة روما أو تملك زمام الأمور بها. (ومن ثم ورد هذا السؤال العبقرى لطلبة المدارس ببريطانيا فى مادة "التاريخ الأوروبى" للتعبير والكتابة : «الإمبراطورية الرومانية المقدسة ... لم تكن إمبراطورية ولا رومانية ولا مقدسة. ناقش !!»).

إن حروب الأسماء تلك قد حملت عبء الصراع الجيوبوليتيكى المستعر باستمرار على السلطة والشرعية، وحتى على "الروحانيات". فالبابا، شبه المعزول بروما، قد تشبث باللقب وتمسك بالاعتقاد بكونه "رأسا للمسيحية"، بالرغم من كونه واحدا فقط ضمن خمسة أساقفة للكنيسة فى القرن الرابع الميلادى. وبمرور القرن

تلو الآخر، تتجذر الهوة التى تفصل ما بين الشرق والغرب، وتتعمق الشقة. ففى القسطنطينية، أدى الشعور والانتماء لما هو يونانى إلى خلق نوع من "الهوية القومية" المرتكنة إلى اللغة والثقافة وتفاعلاتهما، خاصة على الصعيد الجماهيرى (الشعبى).

لقد تحولت المشاعر وتجمدت لتستحيل أهواء وأغراضا. فبمرور الزمن، ذهب الغرب، والمسيطر عليه من قبل الهمج، إلى اعتبار القسطنطينية لا تعدو إلا أن تكون موضعا أو بؤرة لموروثات شرقية فاسدة وعقيمة قدر لها أن تنهض للدفاع عن ذاتها ضد تعديات "المسلمين الفاسقين" وتجاوزاتهم فى "الأراضى المقدسة". ولقد اعتمد هذا النهج الاستبعادى بالرغم من إنجازات القسطنطينية السياسية والعسكرية والثقافية المذهلة على مدار أكثر من ألف عام، حيث امتد ليشمل بلدان شمال إفريقيا، وشرقى المتوسط، ودول البلقان، والهلال الخصيب. بيد أن سلطان القسطنطينية ونفوذها لم يكن ليستمر للأبد. فبحلول عام ١٤٥٣، سقط آخر ما تبقى من "الإمبراطورية اليونانية"، وبلا رجعة، فى قبضة المسلمين الأتراك. بيد أنه، وخلافا للإمبراطورية الرومانية التى لم يستقر لها المقام طويلا، والتى تماسكت بالكاد إلى القرن الخامس الميلادى، فإن الإمبراطورية الرومانية الشرقية طال بها المقام لمدة ألف عام أخرى، لتقرع أبواب القرن الخامس عشر. وبالرغم من سقوط الإمبراطورية وانهيارها، إلا أن الكنيسة الشرقية كانت أبعد ما تكون عن الفناء أو الاندثار، حتى فى تلك الآونة. وتعد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، اليوم، ثانى أكبر تجمع للطائفة المسيحية بعد الكنيسة الكاثوليكية.

نشأة الكنائس القومية

فى معرض سردنا لإنجازات الإمبراطورية البيزنطية، لن يكتمل المشهد إذا ما أغفلنا الحديث عن تأثيرها الحضارى الضخم فى كل المناطق المحلية، والتى سيتم إنشاء كنائس أرثوذكسية بها، على نحو مستدام.

ولعل أهم تراث قد ميز الإمبراطورية الشرقية، وهو ما سنعرض له ضمن طيات هذا الكتاب، كان قيامها بإنشاء كنائس فى كل من أوروبا الشرقية وإقليم الشرق الأوسط ... كنائس استمرت حتى يومنا هذا موصولة حضاريا وعاطفيا بجماعات إثنية ولغوية بذاتها. فما زالت عواقب تأسيس تلك الكنائس القومية تتملكنا حتى اليوم، كما فى التاريخ الدموى الذى أعقب انهيار الاتحاد اليوغوسلافى خلال تسعينيات القرن العشرين، وما صاحبه من تحريض الصرب كأرثوذكس شرقيين ضد الكروات كروم كاثوليك.

وبعيداً عن حروب الأسماء وصراع الثيولوجيا، فإن يونانيى الشرق قد أمضوا قرونا فى صراعهم الرئيسى مع روما بشأن الهيمنة الإقليمية، وخاصة فى إقليم البلقان وأجزاء من الشرق الأوسط. فبمقتضى أحد القرارات الحضارية الخطيرة فى التاريخ، بعثت الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية بإرساليات تبشيرية صوب الجهات كلها لتنصير العالم الوثنى، وإرساء كنائس محلية جديدة تعتمد لغة البلد المقامة به - البلغارية، الصربية، الروسية، المقدونية، القبطية، الألبانية، الأرمينية، الرومانية،...، وهكذا، على امتداد أراضى الإمبراطورية البيزنطية، بل فيما وراء ذلك من أراض. وقد كانت تلك الكنائس الشرقية "القومية" أو "الإثنية"، بما تنطوى عليه من استخدام للغات المحلية فى الطقوس التعبدية - على النقيض تماما من الموروث "فوق القومى" و"الشمولى" للكاثوليكية المرتكن أساسا إلى اللغة اللاتينية باعتمادها فى كل ما يتعلق بالكتاب المقدس والشعائر الكنسية. كذلك، فسيكون لكل كنيسة من تلك الكنائس الأرثوذكسية القومية علاقة مستقبلية ما بالإسلام فى ظل تعايش متقلب ومتوتر. وعلى الجانب الآخر، فإن الكنيسة الغربية لم تعايش أو تخبر علاقة قوية بالإسلام، عدا فى إسبانيا.

لم يكن لدى الكنيسة الأرثوذكسية أية نية لتضمين العنصر الإثنى كركيزة من ركائزها، وإنما تم ذلك عفو الخاطر دونما أى تخطيط. ولقد تولد الرابط ما بين الدين والإثنية عندما أرسلت البعثات التبشيرية البيزنطية إلى الشعوب الوثنية،

خاصة فى العالم السلافى، لتعليمها عن طريق الوعظ وترجمة الإنجيل إلى لغاتها المحلية. وقد بدأ تحول السلافيين إلى المسيحية فى القرن التاسع الميلادى بواسطة البعثة التبشيرية لسيريل وميثوديوس إلى دول البلقان، حيث قاما بوضع أول نظام لحروف الهجاء باللغات السلافية.

لقد كان لهذا العمل التبشيرى مغزى ودلالات عميقة أكثر من مجرد قضية "الدين" : ففى الصراع المحموم ما بين الكنيسة الشرقية من جهة، وروما من جهة أخرى، كانت استراتيجية الكنيسة الشرقية الهامة تحويل الوثنيين، على اختلاف بلدانهم، إلى اعتناق المسيحية الشرقية، وألا يجنحوا إلى الإيمان بالكاثوليكية الغربية. كذلك، فقد أصبحت ترجمة الإنجيل إلى اللغات العامية (الدارجة) لأولئك القابعين عند حدود الإمبراطورية – أداة هامة وعاملاً حاسماً فى دفعهم نحو اعتناق المسيحية، فقد عملت الترجمة على نقل الإنجيل إليهم وفقا للغاتهم المستخدمة مع ضمان ولائهم الحضارى، خاصة وأن هذا الإنجيل المترجم كان السفر الأول الذى كتب بتلك اللغات، حيث لم تكتب بها أية نصوص من قبل –كالذى يطلق عليه الآن "السلافونية الكنسية القديمة"– لغة الطقوس والشعائر الدينية فى العالم السلافى الأرثوذكسى. وكرد فعل، فقد جاهد القساوسة الكاثوليك الألمان فى ذلك الإقليم بغية إثناء السلافيين عن تبنى اللغة السلافية فى الطقوس والشعائر الدينية، ولكن بلا طائل. (واللافت، أنه فى الوقت ذاته لم يكن الإنجيل قد تمت ترجمته كاملا، بصفة رئيسية، فى الغرب، إلى اللغات العامية المحلية، ولم يتم ذلك حتى نشأة حركة الإصلاح البروتستانتى بعد ذلك بخمسة قرون ... أما الكنيسة الكاثوليكية، فقد أصرت على بقاء اللاتينية كلغة الطقوس الدينية الوحيدة، وذلك إلى القرن العشرين، رغما عن أن "العهد الجديد" قد كتب فى الأصل باللغة اليونانية.

والملمح الثانى اللافت من ملامح المسيحية الشرقية كان الاستقلالية الكبيرة نسبيا، والممنوحة للكنائس الشرقية بالمقارنة بشرط الولاء التام والإذعان الكامل لروما، حتى فيما يرتبط بالشئون الإدارية والتنظيمية الكنسية، وذلك فى ظل

الكاثوليكية. أما البابا، فقد أصرّ بالإضافة إلى ما سبق، على الاستئثار بنفوذ دنيوى فائق على نحو لم يكن يتمتع به البطريرك البيزنطى. إن تاريخ أوروبا خلال العصور الوسطى يحفل بأمثال تلك الصراعات الهائلة من صراعات القوة والنفوذ ما بين البابا والأمراء "الدنيويين". وهذا يرشدنا إلى أنه، فى حقيقة الأمر، ثمة إرث ثقيل من التدخلات الدينية فى سياسات الغرب الدنيوية من قبل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بأكثر مما كان عليه الحال فى الإسلام فيما ارتبط بالحكام المسلمين الدنيويين (وهو الوضع الذى ظل قائما إلى أن نشأت الدولة الثيوقراطية، وولاية الفقيه فى إيران الحديثة).

وفى الوقت الذى استمر فيه التنافس بين الشرق والغرب فى أوروبا الشرقية، فإن الصرب، والبلغار، والرومانيين، والروس، بالإضافة إلى النصف الجنوبى من الألبان كانوا قد تحولوا إلى اعتناق الأرثوذكسية، فى حين استمالت روما كلاً من البولنديين، والتشيك، والسلوفاك، والكروات، والسلوفينيين، والهنغاريين نحو اعتناق الكاثوليكية. وقد أدى هذا الاختيار البسيط لما يعتنق من عقيدة إلى وضع قالب بعينه للتوجه الحضارى والسياسى المستقبلى الشامل لهذه البلدان، والذى ما زال قائما إلى اليوم. إذا، فهناك حد فاصل بين الأرثوذكسية والكاثوليكية ينحدر من الشمال عند بحر البلطيق ليخترق يوغوسلافيا القديمة صوب بحر إيجه.

وبذا، وبلا أدنى نية للقيام بذلك، فقد قامت القسطنطينية بدمج كل من الدين والإثنية ضمن التقليد الأرثوذكسى ... وهو مزيج يتمتع بدرجة كبيرة من القوة والثقل. وبحق، فإن ثراء الكنائس الأرثوذكسية يكمن فى تنوعها الحضارى والثقافى حتى وإن ظلت جزءا من جماعة أرثوذكسية قوية متسعة النطاق ومتحدة فيما بينها، فيما يخص كلاً من القيم الروحانية والمعتقد المتبع والطقوس الممارسة. وعلى النقيض تماما، فقد قاوم الإسلام بضراوة إنشاء أية حركات أو تجمعات إسلامية ذات طابع إثنى، كما رفض اعتماد أية لغات محلية كبديل عن العربية فيما اختص بالعبادة، بيد أن الإسلام لم يتبن مطلقا النموذج شديد المركزية الذى تبنته روما ...

فروما لديها البابا، والإسلام لديه الخليفة، وهذا الأخير لم يكن ليستأثر مطلقاً بالسلطة الدينية المركزية كما استأثر بها البابا.

تجذر الصراع الشرقي-الغربي

استفحل الخلاف بين بيزنطة المسيحية وبين الغرب على امتداد عدة قرون لاحقة سبقت سقوط القسطنطينية في عام ١٤٥٣ . وقد ظلت الكنيسة الشرقية في رعب دائم مما شهدته باعتباره انتحالاً بابوياً للكثير من الصلاحيات القضائية والتشريعية فيما يتعلق بجميع مناحي الكنيسة الغربية. فقد كان من الجلي أن ما يضمر هو افتراض البابا لضرورة تقبل الشرق لتلك الصلاحيات في استئثاره بها. ومن وجهة نظر القسطنطينية، لم يعد البابا إلا أن يكون "بطريركا لروما"، فلا يحق له ادعاء امتلاك أية سلطات أو نفوذ شامل على الكنيسة الشرقية، ومن ثم لا يسمح له مطلقا بالقيام بذلك.

لذا، فقد قام الصراع على فرض الهيمنة والنفوذ وتحويل الشئون الدينية الهامشية إلى رموز للتشاحن والصراع. وفي عام ٧١٧، قام الإمبراطور البيزنطي "ليو الثالث" بحظر استخدام الأيقونات الدينية في الكنائس في الخلاف الشهير، والذي ذهبت فيه الكنيسة الشرقية إلى مناهضة جميع ما يتم تجسيده من رموز بشرية في الفن الديني (عاكسة بذلك، في أغلب الظن، وجهات نظر مشابهة في كل من اليهودية والإسلام). ولقد حاول البابا في روما بالفعل الإطاحة بـ"ليو الثالث" بشأن ذلك المنحى، بيد أنه لم يوفق فعمد إلى تجريد بطريرك الكنيسة الشرقية من حقوقه الكنسية، الأمر الذي أدى، بدوره، إلى قيام الكنيسة الشرقية بتجريد البابا من حقوقه أيضا. وقد تم رأب هذا الصدع الجسيم لاحقا، إلا أنه كان دالا على وجود ضغائن وأحقاد فيما بين الفريقين مشيرا إلى إمكانية حدوث ما هو أسوأ في المستقبل.

وخلال القرن العاشر الميلادي، نشب صراع وخلاف جيوبوليتيكي حول الفريق

الذى سيكون له الغلبة فى تحويل بلغاريا، تلك الدولة الفتية الناشئة، إلى اعتناق المسيحية ... فكان انتصار القسطنطينية فى تحويلها إلى الأرثوذكسية ضربة قاصمة لروما.

وفى عام ١٠٥٤، بلغ الخلاف الثيولوجى والسياسى المستعر، والممتد لفترة طويلة، نقطة جانحية فارقة فى تاريخ المسيحية : إذ انساقت روما والقسطنطينية إلى هاوية تبادل موجات الحرمان الكنسى اللامعقولة، والتى بدأ عندها "الصدع العظيم" فى الكنيسة المسيحية. وكانت الذريعة التى سيقت فى هذا الصدد هى الجدل الملغز غير المعقول حول ما "إذا كان الروح القدس ينبع مباشرة من الرب" كما هو رأى القسطنطينية، أم "أن الروح القدس ينبع من الرب وولده معا" وهو ما أصرت عليه روما. ومن المؤكد أن تلك القضية قد أضحت مثقلة بتراكمات من الصراعات والعداءات الجيوبوليتيكية العميقة والممتدة عبر قرون عدة – كأشبه ما تكون بـ"حرب باردة" تدور رحاها بين الفريقين. وكان من المتعين تجسير الفجوة وتضميد الجراح. كذلك، فقد أنكرت الكنيسة الأرثوذكسية مفهوم روما "الجديد" بشأن (الحبل بلا دنس لمريم العذراء)، فضلا عن رفضها للبدعة التى أتت بها روما والقائلة بوجود فكرة "الأعراف" – أى وجود موطن تطهر فيه نفوس الأبرار – وهى معتقدات تبنتها روما بعد مئات عدة من سنين تلت رفع المسيح.

إلا أن ذلك التجريد المتبادل للحق الكنسى من قبل الشرق والغرب لم يكن ليعادل الشكوك المتبادلة والتى أفضت لاحقا إلى الصدام المسلح بين الفريقين المسيحيين خلال سنى الحملات الصليبية (والتى ستناقش فى الفصل الخامس)، حيث نهب الصليبيون اللاتينيون (الكاثوليك) القادمون من أوروبا – القسطنطينية ذاتها، وما استتبع ذلك من آثار باقية لا حصر لها. وكان اكتمال المشهد فى عام ١١٨٢ فيما عرف باسم "مذبحة اللاتينيين" فى القسطنطينية. وقد كانت مشاعر العداء ضد الغرب ومناهضته تتملك الوعى الشعبى وشعوب الشرق التى استاءت بشدة من جماعة تجار البندقية (الكاثوليك) ذات النفوذ والسطوة، والتى أدارت

بالفعل اقتصاد القسطنطينية. وفى مظاهر الفوضى والشغب التى انبثقت كردة فعل ضد انتهاكات الكاثوليك، نشبت مذبحة هائلة راح ضحيتها ثمانون ألفا من "اللاتينيين" الذين جرى قتلهم فى المدينة ... الأمر الذى أدى إلى دق أسفين جديد من الكراهية والصراع الدموى والضغينة المتبادلة فيما بين روما والقسطنطينية.

واليوم، وبعد ستة قرون من غزو الأتراك العثمانيين للقسطنطينية، وسقوط المدينة فى أيديهم، فإن العالم الأرثوذكسى ما زال يندب خسارته "لدرة العقد وواسطته"، والتى ما زالت تحيا فى الذاكرة الجمعية له، تلك الفاجعة التى لا يقيم لها الغرب الأوروبى ما يناسبها من ثقل وجسامة. وبالرغم من كون الأوروبيين يعتبرون سقوط المدينة فى أيدى المسلمين خسارة كبيرة للمسيحية، إلا أنهم لا يسيغون كثيرا "حملات صليبية" جديدة، كما لا يستشعرون حنينا يربطهم بالعاصمة "اليونانية" القديمة للإمبراطورية الشرقية. فمن وجهة نظر المسيحيين الغربيين، لا تعدو القسطنطينية وإرثها إلا أن تكون كيانا أرثوذكسيا أصابه العطب وطاله الفساد، فأضحى كسقط المتاع، أو كونها حدثا تاريخيا عابرا معيبا يتعين عدم الالتفات إليه إلا قليلا. بيد أن ذلك الإرث المشئوم لن يطويه النسيان مطلقا فى الشرق، لأثره الجسيم فى روسيا على وجه التحديد، كما سنرى فى فصل لاحق. فمن ذا الذى يملك فى الغرب وعيا بالمسيحية الشرقية أو استشعارا بقيمتها؟

إلا أن المسيحية الأرثوذكسية لم تكن لتنوى أو تفنى بسقوط الإمبراطورية الشرقية فى أيدى الأتراك، بل لقد ظل البطريرك ذاته محتفظا بوجوده فى اسطنبول المسلمة (حتى إلى اليوم)، حيث سمح له من قبل الأتراك بمواصلة ممارساته وسلطاته الدينية، لا الدنيوية، فى نطاق بعض المناطق من العالم الأرثوذكسى. فحتى بعد انهيار الإمبراطورية الشرقية، ما زال فى حلوق البيزنطيين غصة تجاه روما إلى الحد الذى ذهبوا معه إلى أفضلية الهزيمة على أيدى الأتراك المسلمين، لا على أيدى المسيحيين اللاتينيين. كذلك، فلإدراكهم أن الكنيسة ستحيا وتدار تحت حكم المسلمين، كما بدا جليا فى أراض مسيحية أخرى سقطت قديما فى قبضة الهيمنة

الإسلامية بما فيها الأراضى المقدسة، فإن الأرثوذكسية، إذاً، يكون مقدرا لها أن تحيا. وفى المقابل، فإن الغزو عن طريق روما يعنى تحويل الكنيسة لتصبح "لاتينية"، وهو أمر بغيض، كما يعنى نهاية الأرثوذكسية إلى الأبد، وهو بالطبع مصير أكثر مأساوية. لذا، فإن الخيار ما بين الخضوع لسيطرة المسلمين من جهة أو لهيمنة المسيحيين اللاتينيين من جهة أخرى يبقى غير ذى موضوع لدى غالبية المؤمنين من المسيحيين الأرثوذكس.

مرايا وأصداء

فيما مضى، رأينا نطاقا واسعا من المشاحنات والعداءات والشكوك يتكشف لنا فى العلاقة ما بين العالمين المسيحيين الشرقى والغربى. وحتى ولو تزيأ الصراع، عادة، فى حلة خلاف ثيولوجى، إلا أنه، وفى حالات عديدة، قد انطوى على أمور دنيوية كصراع المتحولين إلى اعتناق المسيحية بشأن حيازة الأراضى وامتلاك القوة المؤسساتية. وفى النهاية، فإنه من الجلى أن الدين الرسمى للدولة، فضلا عن الخلافات الثيولوجية العقدية لم يكونا إلا أدوات تعمل على تلبية الاحتياجات الاجتماعية والسياسية، وحتى السيكولوجية، للدولة.

وقد أشار الباحث فاسيليوس ماكريدس، الباحث فى الشئون البيزنطية بجامعة "ايرفورت" إلى "أن حركات المقاومة الشعبية ذات الطابع الدينى السافر عادة ما يكون لها طابع آخر خفى. وبعبارة أخرى، تعكس تلك الحركات عدم الرضا، اجتماعيا واقتصاديا، فى مواجهة السياسات التغريبية وهيمنتها ... وقد تتخذ مناهضة الغرب شكلا أو قالبا قوميا صارخا، والذى قد يكون بديلا عن الدين ذاته". وفى العصر الحديث، فإن القضايا على شاكلة العولمة المقادة من قبل الغرب، داخل نطاق العالم الأرثوذكسى القديم، قادرة على خلق مخاوف مشابهة، كأصداء للصراعات الجيوبوليتيكية المبكرة، والتى خضع فيها الشرق لهيمنة الغرب وقوة نفوذه.

وتنطبق هذه الملامح، على نحو دال، فى انسحابها على الصدع ما بين العالم الإسلامى والغرب، وفق ما نشهده الآن. وحتى لو وجدت ديناميات التصارع الشرقى-الغربى، والتوتر فى علاقاتهما البينية – فى نطاق المسيحية ذاتها، فيعكس ذلك تطابقا فى أركان الخلاف والتوتر ما بين العالم الإسلامى والغرب، إذ تكون الهويات وآليات النفوذ مهددة بأكثر مما يكون الدين كذلك، وعندها تؤدى قضايا الاعتزاز بالهوية إلى تعزيز الخلافات الجمعية. فكما عقب ماكريدس : "ما زال الكثير من المسيحيين الأرثوذكس على يقين بتفوقهم وتميزهم عن غيرهم، فضلاً عن إيمانهم أشد الإيمان برسالة الخلاص التى يبشرون بها على امتداد العالم بأسره". ويمكن أن نقول الشئ ذاته بالنسبة للمسلمين وإيمانهم بأن الإسلام، أيضا، قادر، إن عاجلا أو آجلا، على الإسهام فى إنقاذ الغرب الذى يشبه سفينة بلا هاد تكاد تغرق فى بحر لجى.

وفى حين تتعمق الفجوة وتترسخ الشقة بين غرب قوى متقدم من جهة، وشرق ضعيف تابع ومتأخر من جهة أخرى، يكون من الطبيعى أن يبحث الفريق الأضعف عن تفسير لتلك الظاهرة. وفى هذا الخصوص، فقد ذهب اتجاه ما إلى اعتبار الغرب مسئولا عن كل إخفاقات العالم الإسلامى، وكذا العالم المسيحى الأرثوذكسى. وأضاف ماكريدس :

"فى حالات بعينها، تمثل مناهضة الغرب وسيلة ملائمة لإعطاء حلول جاهزة ومخارج من العديد من مشكلات العالم الأرثوذكسى ... فآلية الحد من المسئولية الذاتية والتخفيف من الشعور بالذنب بالعمل الدائم على عزو مصادر الشر الرئيسية إلى قوى خارجية (الغرب، فى هذه الحالة) ... هى ظاهرة مألوفة ولصيقة بالشرق الأرثوذكسى، فضلا عن كونها ضربا لتحويل مشاعر التململ والاحتقان الاجتماعى نحو وجهة أخرى".

وفى الختام، فقد لاحظ ماكريدس أن الجماعات السياسية المناهضة للغرب فى

اليونان الحديثة وفى غير دولة من العالم الأرثوذكسى، كروسيا على سبيل المثال – تسعى نحو صيغة اتحادية (كونفدرالية) ما مع تركيا ترتكن فى جانب منها إلى قوة الأجندة المناهضة للغرب. وسنرى لاحقا وجود مشاعر موالية للمسلمين والأتراك، ولو لم تكن جزءا من الاتجاه السائد للتفكير، وذلك فى روسيا المعاصرة اليوم، وهو الأمر الذى يعكس بعضا من ردود الأفعال التاريخية تلك.

كذلك، نرى هنا الجذور المبكرة لظاهرة اشتراك كل من الإسلام والأرثوذكسية الشرقية فى تبنى العديد من وجهات النظر بشأن الغرب. فلو لم يكن ثمة إسلام فى الشرق الأوسط، كذلك فإذا كانت الأرثوذكسية الشرقية قد استمرت فى إحكام قبضتها وفرض هيمنتها هناك، فهل من العسير أو غير المحتمل تخيل الأرثوذكسية وهى ما تزال تحمل بمفردها لواء المشاعر المعادية للغرب فى إقليم الشرق الأوسط اليوم؟